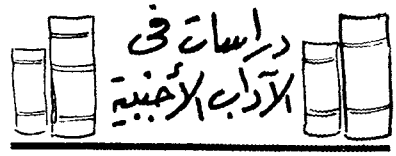

أرنست همنغواي

فنان الفشل البطولي

بقلم نجيب ماني

يحتل همنجواي منذ عشرينات هذا القرن مكانا رحيبا بين المعبرين عن الروح الانسانية ورفعتها والشعر الذي يحيط بها اناء معاناتها لمصيرها . وقد يبدو هذا غريبا اول الامر اذ نرى حرص همنجواي على الا يتحدث عن الروح والرفعة والشعر حديثا كامل الصراحة . الا انه من جهة اخرى قد يصدق القول ان همنجواي بسبب من عزوفه عن الاطناب في الحديث عن تلك المعاني استطاع ان يشير اليها اشارة بينة . والامر جله يتعلق بأسلوبه فهو قد قهر نفسه قهرا على ان يحرر كتابته من التزويق والنفاية وتعديد الالوان وتعلم هذا الاسلوب الحاد الموجز المتصل بالتجربة اتصالا مباشرا خلال مشقة وجهد لا يظهران فيه .

كانت اوائل اعمال همنجواي الجيدة مجموعة اقاصيص دعاها « في ايامنا » مشيرا في ذلك بسخرية الى الصلاة التي تقول « امنحنا ايها الرب سلاما في ايامنا » . وليس في هذه الاقاصيص سلام بل فيها عنف شديد يصوره بقدرة موضوعية وباقتصاد هائل في التعليق عليه حتى جعل البعض يعتقدون انه قصد العنف والقسوة والموت لحد ذاتها .

وغالبية هذه الاقاصيص تتحدث عن تجاريب منفردة ، الا انها تتصل فيما بينها لدى رؤيتها ككل ، تجاريب عاناها الصبي نيقولا ادامس منذ حداثته حتى رجولته ودخوله عالما عدوا . وتبدا كل من هذه الاقاصيص بمقدمة قصيرة جدا تصور عنفا او موتا لا يكاد يتصل بالاقاصيص نفسها الا من حيث المغايرة او التشابه للعنف او القسوة التي فيها .

والقصة الاولى التي تدعى « المخيم الهندي » تروي اصطحاب نيقولا آدامس لابيه الطبيب حيث يدعى ابوه الى مخيم للهنود الحمر ليرى امرأة مضى عليها في المخاض يومان وتعسرت ولادتها . وهناك يضطر الطبيب للقيام بالعملية القيصرية . ولعدم وجود الادوات الطبية يضطر الطبيب الى استعمال سكين اعتيادية . ولعدم وجود المخدر فان الما كان شديدا . كل هذا على مرأى من الصبي . وحين يُخرج الوليد ويخيط الطبيب البطن بالخيط الذي يصطاد به السمك ويستدير الى الزوج الذي كان مستلقيا ابان العملية يدخن غليونا يجد ان الزوج قد قطع رقبته بموسى حيث لم يستطع تحمل آلام زوجته . في هذه القصة يعبر همنجواي عن تعرف الصبي على حقائق الالم ويجعل من الولادة والموت رمزين قويين ، والموت بشكل أخص هو الموضوع الذي يتناقله همنجواي مرات ومرات بعد قصته تلك .

والقصوصة « المشاحن » يتقدمها منظر قصير جدا يصف اعدام ستة من اعضاء وزارة وقد كان واحد منهم مريضا بالتيفوئيد . وقد امر الملازم الجنود باطلاق الرصاص على الستة ، خمسة منهم واقفين والسادس المريض جالسا ثم انه بعد اطلاق الرصاص يظل جالسا في بركة من ماء المطر ووجهه منكفىء على ركبتيه .

على ان همنجواي حين يعنى بالموت فانه لا يقصده لحد ذاته بما فيه من رعب مثير كما يفعل الادب الرخيص . ولكن يتسم انهماك همنجواي في موضوع الموت بطابعين : فالموت اولا هو اللاشيء الاكبر ، واللاشيء لدى همنجواي كما سأتحدث بعد قليل موضوع رئيسي يشغله وهو يتخذ صفة الشيئية . وثاني اسباب اهتمام همنجواي بالموت هو الجمالية التراجيدية التي يكون الموت منتهاها .

اما اللاشيء الذي هو في الحقيقة شيء وشيء مرعب جدا فافضل ما يلقي عليه الضوء اقصوصة اسمها « مكان نظيف حسن الاضاءة » وهي تصف رجلا كان يأتي الى مقهى نظيف حسن الاضاءة ويظل وحده يشرب حتى يذهب الزبائن جميعا وهو لا يريم . وفيها يدور حوار منبىء جدا بين نادلين احدهما شاب متزوج يسأم البقاء الى ساعة متأخرة من الليل ويريد الذهاب الى زوجته وثانيهما نادل تقدمت به السن وعرف حاجة الانسان الى مكان نظيف حسن الاضاءة . يقول النادل الشاب متحدثا عن الزبون المستوحد :

ـ « في الاسبوع الماضي اراد ان ينتحر » . فيسأله الشيخ ـ لماذا ؟

فيقول الشاب :

ـ كان يائسا

ـ من اي شيء ؟

ـ من لا شيء

ـ وكيف تعرف انه لا شيء

ـ ذلك لان لديه كثيرا من المال .

واللاشيء التي يقولها النادل المتقدم في السن مكررا اللاشيء التي يقولها الشاب ليستا شيئين متشابهين . فحين يقولها الشاب غير دار بمعناها المرعب قاصدا اللاشيء بكامل لاشيئيته اذ ان المال في نظره شيء ولا يستطيع ان يتصور انه مع وجود المال يمكن ان يظل اللاشيء قائما ، فان النادل الاكبر يعني انها شيء اسمه لاشيء ، شيء مرعب يعلو الانتحار من اجله جميع اسباب الانتحار الاخرى من قلة النقود وغير ذلك من الاسباب التي يدعو فقدانها الى ترك العالم .

ويتركز اللاشيء هنا حين يذهب النادل الشاب ويظل الشيخ وحده في المقهى في تلك الساعة المتأخرة من الليل . يظل يحدث نفسه عن ذلك اللاشيء الذي يعرفه جيدا والذي يقاومه مكان نظيف حسن الاضاءة ، رمز الطمأنينة والفكاك من الصراع . ويأخذ الشيخ بتحوير الصلاة اليومية : يا ابانا الذي في السماء ، يقدس اسمك ويعلو ملكوتك في الارض كما

في السماء اعطنا خبزنا كفافنا اليوم واغفر لنا خطايانا الخ ... فيصلي النادل جاعلا كلمة لا شيء تحل محل جميع الالفاظ في تلك الصلاة وهو يستعمل كلمة نادا Nada وهي تعنى بالاسبانية لا شيء ، والنادل على ما يظهر مكسيكي او اسباني اذ ان همنجواي لا يفصح عن ذلك . وهكذا تجرى الصلاة على لسانه « يالاشيئنا الذي في اللاشيء، لا شيء اسمك ، ولا شيء ملكوتك ، اعطنا اللاشيء لا شيئنا اليوم ولا شيئنا (كفعل) كما نحن لا نشيء (كفعل ايضا) الذين لا شيئون نحونا الخ ..

فاذا كان اللاشيء هو المحور الحقيقي الذي تدور عليه الحياة فان الصلابة والمجالدة تعطيان معنى لها ، وهو معنى فيه تحد وبطولة . ولا تكون المجالدة الا بادراك النظام الخلقي للفعل الانساني والالتزام به .ولكل فعل قانونه الخاص به من الملاكمة ومصارعة الثيران وصيد الاسماك الخ وهذا يفسر لنا اهتمام همنجواي بالفعل Action اهتماما بالغا يعطي انطباعا لدى النظرة السطحية بان الفعل عنده خال من التأمل ولكن التأمل الذي يفصح عنه الفعل بذاته ثري جدا، ان همنجواي يدع الفعل يتحدث حديثا بليغا .

ان اهتمام همنجواي بالفعل جعل منه قوة مؤثرة في الادب الحديث وكثر مقلدوه في جميع انحاء العالم . فهو قد اكتشف البلاغة الكامنة في الفعل وحده واصبح التأمل الباطني والتعليق الخارجي من قبل الكتاب امورا تقلل من الادراك الواقعي الحار للحياة . واحتقار همنغواي للمسميات المنفصلة عن الواقع النابض يشير اليها بطل قصته الطويلة « وداعا للسلاح » اذ يقول « لقد طالما اربكتني كلمات مثل مقدس ومجيد وتضحية ... لقد سمعناها احيانا ونحن واقفون تحت المطر ولا تكاد تصل آذاننا ، وما كان يصلنا منها سوى الكلمات التي يرتفع الصياح فيها .. وقرأناها في اعلانات تلصق فوق اعلانات اخرى ، والان مضى علي زمن طويل لم ار شيئا مقدسا والاشياء التي كانت مجيدة ليس فيها مجد والتضحيات كانت مثل مستودع البضائع في شيكاغو ان لم يكن ما يصنع في اللحم سوى دفنه .. ان الكلمات المجردة كالمجد والشرف والشجاعة والقدسية تصبح خليعة ازاء الكلمات المتينة لاسماء القرى والشوارع والانهار وارقام الكتائب وتواريخ الايام . »

ان بطل همنجواي الاصيل شخص مدرك او في طريقه الى ادراك اللاشيء . والعنف الذي يعبر عنه همنغواي في هذا الصدد هو موقف المقاومة لذلك اللاشيء .

ويغلب ان يكون اشخاص همنجواي اشداء خلصاء لقانونهم الاخلاقي بسبب من جرح اصابهم ، والجرح الجسدي الذي عانوه رمز للجرح النفسي ايضا ، وهو يقول على لسان بطل « وداعا للسلاح : « اذا اتى الناس بشجاعة عظيمة الى هذا العالم ، فيتعين على العالم ان يقتلهم. والعالم يهشم كل واحد ، وبعد ذلك كثيرون اولئك الذين يصبحون اقوياء في المواضع المهشمة ولكنه يقتل من لا يستطيع ان يهشم ، وهو يقتل الطيبين جدا والمهذبين جدا والشجعان جدا دون تحيز . واذا لم تكن واحدا من هؤلاء فكن على ثقة من انه سيقتلك ايضا ولكن ليس هناك ما يدعو الى العجلة .

فهناك اذن اناس من القوة بحيث لا يمكن قتلهم ولكنهم يجرحون وهم يكتسبون من جراحهم قوة جديدة .

والذين يصبحون اقوياء في المواضع المهشمة هم غالبية ابطال همنجواي. فهذا مثلا جيك بارنز في القصة الطويلة « الشمس تشرق ايضا » يعود من الحرب العظمى الاولى بعد ان اجريت له عملية افقدته قابليته الجنسية ولكنه حتى في مضمار العلاقة مع المرأة يظل امرءا اسلم نفسا واقوى من جميع الذين كانوا يحيطون به من الرجال السليمين ، فهو اكثر بطولة من روبرت كوهن الملاكم اليهودي الذي تحتقره المرأة في القصة ويضجرها اله وحزنه الدائم وحين يتعرف تصرفا اهوج يبعده في عينيها عن الرجل الحقيقي الذيهو جيك بارنز والرجلالذي احبته اخيرا مصارعالثيران ولم روميرو ذلك الذي يمثل الجانب الطبيعي والساذج هو رجل لم يتلوث ولم يتعقد الا انه رغم ذلك حار مهذب تهذيبا خالص النقاوة .

ومثل آخر من الذين يصبحون اقوياء في المواضع المهشمة هو روبرت جوردان بطل القصة الطويلة « لمن تقرع الاجراس » اذ هو يحاول الا يفكر فيما يمضه من الماضي ويشرب الخمر على انها قاتلة العمالقة ، عمالقة الالام ، وهناك في ماضيه جرح عميق يحاول الفكاك منه وهو يستطيع ذلك بان يهب نفسه للقضية التي كان يحارب من اجلها ويهب نفسه للناس الذين احبهم وآمن بهم : الاسبان الجمهوريين .

ومن الناس الذين يصبحون اقوياء في المواضع المهشمة ايضا الشيخ سانتياغو المستوحد في البحر في الاقصوصة الطويلة « الشيخ والبحر ». وهو قوي حيث هشمه الهرم وسوء الحظ والتوحد ، قوي الى درجة تجعله يقول « تحطم ولكنه لم يقهر » . فبعد ان جاء بالسمكة الكبيرة هيكلا عظميا وبعد ان امضى الجهد الطويل الجبار في سبيلها ثم فقدها على هذه الحال ما زال في نيته ان يعود الى البحر مرة اخرى .

والوجه الاخر من عناية همنجواي بالموت هو جمالية الشجاعة . وان الشجاعة لدى همنجواي تكمن في الشجاعة الجسدية الصرفة ويندر ان يتحدث همنجواي عن عوامل نفسية معقدة تدعو الى اتخاذ موقف جريء. بل انه يربأ بهذه العوامل ان هي كانت فكرية وهمه وصف الرشاقة التي يواجه بها الانسان الموت . وجمال الرجل الذي يأخذ الموت ويعطيه يتمثل افضل ما يتمثل في مصارع الثيران . وقد يمكن الربط بين اللاشيء والرشاقة في مواجهة الموت، فلئن كانت الحياة لا شيئا فان الشيء الوحيد الذي يستطيع فعله الانسان هو ان يكون جميلا في مواجهة العدم، جميلا ازاء الموت .

*

لقد وصف الناقد الامريكي الكبير مالكوم كاولى ادب همنجواي بانه ادب ليلي . وقال انه احد الكتاب الذين تناولوا صورا للعتمة الداخلية في الوجود البشري . وفي ادب همنجواي ما سماه كاولى بالكوابيس في الظهيرة . ولا بد لكثير من ابطال همنجواي من عذاب داخلي او جرح قديم يقض مضاجعهم ولا يدعهم ينامون ويحاولون ان يهرعوا منه بصهر انفسهم في اتون الفعل Action والحركة . وهناك قصة قصيرة لهمنجواي اسمها « النهر الكبير ذو القلبين » Big - Hearted River وقد اصبحت بفضل كاولى مفتاحا لادب همنجواي رغم انها حين ظهرت منذ حوالي ثلاثين عاما وصفت بانها قصة باهتة . فقد قال الكاتب سكوت فيتزجرالد (١) الى صديقه همنجواي نصف مازح : « لقد كتبت قصة لا يحدث فيها شيء » . وقد اجابه همنجواي : « انت لا تزيد على ان تكون ناقدا صحفيا Reviewer وعسير عليك ان تدرك ما اردتُ في هذه القصة . » والفضل كله يعود الى مالكوم كاولى في تبيان رموز هذه القصة .

وهذه القصة التي لا يكاد يحدث فيها شيء تعتبر الان من اجمل ما كتب في فن القصة القصيرة : نيقولا ادامس يعود الى بلده فيأخذ متاعا

(١) لا حاجة للقول بان سكوت فتزجرالد كاتب ممتاز وهو مؤلف القصة الذائعة « كاتسبي العظيم The Great Gatsby

وخيمه ويذهب وحده الى مكان قرب نهر كان فيما مضى يصطاد فيه ويمر في طريقة على ارض احترقت واسودت اعشابها وبعدها ينصب خيمة ويطهو طعامه ويأكل ثم يصطاد السمك. وكان النهر يضيق حتى ينصل بمستنقع . ولكن نيقولا لا يود الذهاب الى هناك ويكاد هذا يكون كل ما في القصة من احداث .

من خصائص هذه الاقصوصة ، وهي خصائص كل ادب همنجواي على وجه التقريب ، الدقة في تصوير العمل العضلي، تلك الدقة التي تتخذ شكل الطقوس والشعائر حتى ان صيد السمك هنا كما في غيرها يعبر بشكل رمزي عن صلاة سحرية وتعاويذ . كما ان خصيصة اخرى في ادب همنجواي تتضح في تلك الاقصوصة الفريدة تلك هي ان ادب همنجواي صورة لرجل ما بعد الحرب العظمى الاولى وهو مريض في سبيل الهرب مما جعله يمرض ، وليس له الا ان يظل مشغولا من الناحية العضلية بشكل دائم . ويبدو ان نك ادامس كان قد عاد من الحرب الاولى وقد حملته كثيرا من الجراح الجسمية والنفسية كما تشير الى ذلك افاصيصه الاخرى حول نك ادامس . ومروره على الارض المحترقة رمز للحرب ودمارها . ان على بطل همنجواي في اوائل انتاجه ان يظل مشغولا بجسده ولا يفكر كثيرا لئلا يمتنع عليه النوم ، وان عليه الا يشتط في الاحساس والا استعصى عليه مرضه وان عليه الا يذهب الى المستنقع الذي يضيع فيه النهر بل يظل قرب خيمته وهي « المكان النظيف الحسن الاضاءة » . ويبدو انه في هذه القصة يريد ان يعرض على نفسه صياما عاطفيا لعله ينفعه . وثمة خصيصة اخرى نبدو من هذه القصة القصيرة وتسود كل ادب همنجواي وما استطاع احد ان يجاريه فيها قط وهي التوضع في التعبير Understatement

ارنست همنغواي

حين يقول همنجواي : « واحس نك بالتعب وشدة الحرارة » يستطيع ايصال الاحساس بتعبه الى القاريء بشكل حاد دونه ايصاله لو انه قال « واحس نيك بالتعب يكاد يقطع اوصاله وبالعرق يتصبب من جسمه بغزارة او : اصبح لا يستطيع تحريك اعضائه من عظم الاعياء او اي شيء سوى : احس بالتعب وشدة الحرارة .»

التواضع في التعبير سر من اسرار اسلوب همنجواي ويمكن القول انه حاز على اسلوب بليغ خلال تحرر تام من البلاغة .

ثم ان هذه الاقصوصة تقدم همنجواي كاتبا حواسه الخمس لا تخطيء شيئا وهي تسجل كل شيء يمر بها . وقلما استخدم كاتب حواسه بمثل دقة همنجواي وايجازه ، وهو يقف في مضمار الحس بالاشياء في صعيد واحد مع تولستوي وفلوبير وكوليت مع فارق واحد هو ان هؤلاء تحليليون وهمنجواي ليس كاتبا تحليليا ، اعني ان هؤلاء يصورون العالم من خلال الجو النفسي الذي يسبح به اشخاصهم .

ان وصف نهاية معركة اوستيرلتز في «الحرب والسلم» ليس سوى معجزة خارقة ونحن ننظر اليها باحساس اندريه بولكونسكي الذي انطرح جريحا فيها وقد اتخذت السماء عنده شكلا غير الذي الفناه والريف الحقير الذي يصفه فلوبير دون ادنى خطأ ندركه خلال احساس الضجر الذي كانت ايما بوفاري تتلوى فيه . ولا يقدم همنجواي اشخاصا ذوى « حالة نفسية » معينة بحيث يكون احساسهم بالاشياء المحيطة بهم احساسا خاصا ، الا انه قابل للايصال بل ان العالم الذي يحيط بهم هو العالم الطبيعي الذي نعرفه : الشمس فيه هي هذه الشمس والبحر هو هذا البحر والشراب هو ذلك السائل الذي ينعش ويسكر ومع كل هذه «الطبيعة» يستطيع همنجواي ان يخلق جوا رمزيا. وهذا سر اخر من اسرار تجويده .

فلننظر اذن الى هذه القابلية في التوفيق بين الطبيعية Naturalisme وبين الرمزية .

ان قصة « وداعا للسلاح » باعتبارها قصة حرب وحب يمكن ان نقرأ على انها « طبيعية » ، توصف فيها الحرب بدقة موضوعية . غير ان قراءتها على هذا النحو اغفال للرمزية التي فيها وسآتي عليها بعد حين .

لقد قال همنجواي مرة « ان عظمة الجبل الجليدي العائم انما تبدو خلال الثمن الظاهر منه فوق الماء » وعليه فان قصصه على جودتها تبدو خداعة فيما تظهر لنا وما تخفي. الجزء البين منها يلتمع بالصور الواقعية الحية الملموسة والكثير الخفي الذي عليه نرتكز لا يبدو الا للعين المتفحصة المكتشفة. وما لا يبين ليس من صنع الكاتب الواقعي بل هو من بناء رجل اخر : الشاعر الرمزي .

والحديث عن رمزية همنجواي المختفية وراء الجو « الطبيعي » عنده يمضي بنا الى الحديث عن اسلوبه الذي هو من اكثر الاساليب اصالة وتاثيرا في القرن العشرين، فان الاسلوب يحوي في طياته فحواه وطريقة الاداء يكمن فيها المعنى .

اسلوب همنجواي رمز بحد ذاته وبطبيعة تراكيبه الى العالم المتفكك المتخلخل الاجزاء الذي يصفه . ولقد قال الناقد مارك شورر « ان عثرى نثر همنجواي توحي بعرى الحياة التي هي موضوعه » ، كما قال « ان اسلوبه نفسه تعبير عن اخلاقية المجالدة التي هي مدار همنجواي » .

وعثرى اسلوب همنجواي واخلاصه الشديد للتواضع في التعبير يبدوان خلال حواره اشد ما يبدوان . ان حواره من الحياة بحيث تتخذ كلمتا « لا » و « نعم » وحدهما رنينا يسمع عند القراءة بكل وضوح .

ليس حوار همنجواي عقليا كحوار اوسكار وايلد او برناردشو بل هو حوار يشع من حرارة الحس ودفء الشعور ، ليس فيه نصيب كبير من الناقشة المنطقية ولا التلاعب السوفسطائي بالالفاظ كما يفعل اوسكار وايلد مثلا .

ان اذن همنجواي للالفاظ كأنفه وبصره ولسانه وانامله ، حساسه تسجل ادنى الاهتزازات وتمايز بين الفحيح والهمس والصياح والصمت وهو يلهم سكيريه وجرحاه وشقاته وصياديه وعشاقه حوارا يضعهم في مدى اللمس معنا .

كتب همنجواي ما يقرب من خمسين اقصوصة تحتل بين القصص القصيرة في الادب العالمي مكانا ممتازا. وتقع اقاصيصه في ثلاث مجموعات نضاف اليها ست اقاصيص اخرى نشرت خارج تلك المجموعات ثم جمعت

كلها فيما يسمى الان بالـ ٤٩ اقصوصة الاولى .

والمجموعات الثلاث هي «(في ايامنا)»ثم«(رجال دون نساء)» ثم «الا يأخذ الفائز شيئا » اما اقاصيصه خارج تلك المجموعات فاهمها الاقصوصة الطويلة« حياة فرانسيس ماكومبر السعيدة القصيرة » وهي اكمل اقصوصة كتبها همنجواي ولا تعلو عليها سوى اقصوصته الطويلة «الشيخ والبحر». وهناك من اقاصيصه خارج المجموعات الثلاث « ثلوج كليمنجارو »

ان قصة « حياة فرانسيس ماكومبر السعيدة القصيرة » دراسة في تعلم الشجاعة ، وكل شيء يتعلم وفقا لهمنجواي حتى فن الكتابة

فرانسيس ماكومبر شاب امريكي ثري ياتي مع زوجته الجميلة التي تحتقره الى غابات افريقيا للتسلي بالصيد وهناك يجد دليلا انكليزيا مقيما اسمه نلسون ، وفي افريقيا يرتكب ماكومبر عملا يدل على الجبن حين يهرب من وجه اسد كان قد جرحه . وقبل ان يهرب منه كان يريد من الزنوج الذين يخدمونهم ان يذهبوا اليه ، وهو عمل لا يوافقه عليه الدليل لان فيه مخاطرة بحياة هؤلاء دون رغبة منهم بذلك ، ثم انه يفضح خلوه من « اخلاقية الفعل » بان يقترح ان يترك الاسد الجريح وحده وهو عمل قد يودي بحياة احد الماربن الذين لا يعرفون ان في الفراش اسدا جريحا. هذا الى ان الاسد قد يكون متألما من جراحه بحيث يجب القضاء عليه. ولكن ماكومبر يجبن عن مواجهة الاسد الجريح وحين يواجهه وينقض عليه فان ماكومبر يرمي بندقيته ويولى هاربا لولا ان ولسن يكون بالمرصاد فيطرح الاسد بطلقة من بندقيته .

اما زوجة ماكومبر فانها تحتفل بجبن زوجها بان تقبل الدليل على مرأى منه ثم تترك خيمتها ليلا للارتماء في احضان الدليل .

بيد ان ماكومبر يتعلم الشجاعة اخيرا ولا يهرب امام جاموس وحشي انقض عليه . وحين ينجح في قتل الوحش تكون زوجته قد اصابت من رأسه مقتلا وطرحته ، فاذ تصبح زوجها رجلا يكون خطرا عليها . وهذا لا يعيش ماكومبر سعيدا بشجاعته الجديدة الا حياة قصيرة جدا .

يستشهد فيليب يونج في كتابه عن همنجواي بما قاله د.هـ. لورنس عن الرجل الامريكي الحديث من انه فقد السيطرة القضيبية على انثاه . ويقول ان ماكومبر كان قد فقد هذه السيطرة على زوجته وهي سعيدة بذلك الفقدان لانها انما تصاحبه من اجل ما يهيئه لها غناه من تمتع بالحياة وهي التي تسيطر عليه آناء ذلك وتخونه متى شاءت. ولكنه حين يبشر بانتهاء عبوديته لامرأته وولادته من جديد فانها تقضي عليه في المهد .

*

ان رموز همنجواي تلقائية تصدر عنه في مضمار التركيب الفني وهو حين يحاول ان يعني رموزه ويفرضها فانها تفقد بعض حدتها ونفاذها كما فقدت « ثلوج كليمنجارو » قابليتها على الاقناع الفوري ، على ان هذه القصة جيدة من كثير من الوجوه .

هناك بعض الرموز النفاذه التي نجح همنجواي كل النجاح في الايحاء بها دون اكراه ، فلنأخذ مثلا هذا المقطع من مقدمة احدى اقاصيص « في ايامنا » وهي المسماة « نهاية شيء ما » .

« اول الماني رأيته كان يرتقي جدار البستان . انتظرنا حتى وضع ساقا عليه ثم طرحناه . كان يحمل كثيرا من الامتعة وقد بدا عليه استغراب عظيم . ثم انه سقط في البستان ، وبعد ذلك جاء ثلاثة آخرون منحدرين على الجدار . اصبناهم جميعا . كلهم جاءوا على هذا النحو . »

يتخذ الجدار في هذه الصورة حيوية وعنفا حتى انه يستحيل الى رمز يشمل كل شيء لا يمكن عبوره ولا الصعود عليه . يصبح رمزا للنهر الذي يفور في المستنقع ولا يمكن الذهاب اليه ، ورمزا للطريق الذي يمتد وليس من سبيل للمضي فيه .

وفي القصة الطويلة « وداعا للسلاح » يصبح المطر رمزا للكارثة وها هو يقول « سارت الامور سيرا سيئا جدا . كان هناك في بداية الشتاء المطر الدائم ومع المطر جاءت الكوليرا . ولكنهم اوقفوها اخيرا وفي النهاية مات منها سبعة الاف فحسب بين الجنود (١) وكان بن باركلي تخاف المطر لانها كما تقول « اراني ميتة فيه » . ثم ان المطر سقط طوال انسحاب كابوريتو الذي صوره همنجواي بشكل معجز وسقط المطر كذلك حين تكون كاترين على وشك ان تضع طفلها في مستشفى سوبسري ويظل يسقط حين تموت وحين يدفع هنري بالممرضات خارج الغرفة لينفرد بحبيبته الميتة ، ثم يقول : « لم يكن في ذلك اي فائدة » كان يشبه توديع تمثال . خرجت بعد لحظات وتركت المستشفى وعدت الى الفندق تحت المطر (١) »

ـ التتمة على الصفحة ٧١ ـ

(١) لقد ترجمت «وداعا للسلاح» الى اللغة العربية بقلم احمد العرابي ونشرتها دار النشر للجامعيين ، واقل ما يقال في هذه الترجمة ان كل صحيفة فيها تحتوي على خيانة واحدة نحو همنجواي ونحو اسلوبه الرائع، واغلب الظن ان المترجم لا يدرك شيئا من خصائص اسلوب همنجواي واذا بالقصة التي تحوي كل جملة فيها اقتصادا في العواطف في التعبير تجيء كانها احدى صبيانات المنفلوطي . ها هي الجملة التي جاءت في هذه الترجمة الفظيعة : « في مطلع الشتاء هطل مطر غزير وحملت مع المياه (المنسابة في زحفها) جراثيم الكوليرا (فارعبت النفوس واقضت المضاجع) ولكنهم استطاعوا القضاء عليها بعد ان ازهقت من ارواح الجنود سبعة الاف فقط (!) (كانوا جميعا في فرحة الشباب ونضرة الصبا) . كل ما بين الاقواس من عنديات المترجم وهي تدل على انه يترجم همنجواي باعتباره لامارتين او شيئا اسوأ من لامارتين بكثير ولنقل ميشيل زيفاكو . وفي الترجمة كلها انحدارات عاطفية من هذا القبيل نكون الاشارة اليها كتابا مستقلا .

اما منير البعلبكي فهو مترجم قدير اين وهو حين نرجم همنجواي لم يضف من عنده اته جملا بكاملها ولم يحذف جملا ولا يلام البعلبكي لعدم استطاعته نقل رنين الكلمات من الاصيل فهمنجواي ككل شاعر عجيب ـ يتحدى الترجمة ، وما فعله البعلبكي هو اقصى ما يستطيع مترجم ان يفعله .

لقد مضت الترجمة ـ ونحن احوج ما نحتاج اليها ـ في دروب تجارية رخيصة تسعى الى اجتلاب اكبر الغنم باقل الجهد وها هي دار الهلال مثلا تستبيح ترجمة « الحرب والسلم » » في نحو مائتي صفحة و « انا كارنينا » في قرنب من ذلك واصبحت هذه الاشكال من الترجمات تشبه تجارة المخدرات في انها بضاعة صغيرة سهلة الحمل وارباح هائلة وعمل غير مشروع على ان تجار المخدرات ينالون اشد العقاب وهذا هو الفارق .

(هذا المقطع في ترجمة العرابي الخؤون هو « لم استطع البقاء . كان عملي بحية وداع الى تمثال من اللحم . فخرجت من الغرفة مغادرا المستشفى والمطر ينسكب فوقي مدرارا » ولم اعجب حين وجدت اناسا قرأوا « وداعا للسلاح » في هذه الترجمة فلم يصعقهم كالتيار الكهربائي : لقد وضع المترجم بينهم وبين التيار الكهربائي كثيرا من قطع الخشب .

ارنست همنغواي

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٤٣ ـ

وفي ثلوج كليمنجارو يكون الثلج رمزا للموت وللخلود ايضا. اما الضباع والنسور فرموز للموت دون الخلود .

في كتاب همنجواي « تلال افريقيا الخضراء » (وموضوعه رحلات الصيد التي قام بها همنجواي في افريقيا تتخلله اراء له في فن الكتابة والحياة) يصف ضباعا كانت قد اصيبت في بطنها وتدلت احشاؤها ولكنها اثناء ذلك تنهمك في التهام امعائها المتدلية بتلذذ. ويقول الناقد الاميركي ماكسويل جيسمر « ان الضبع هو القاتل والقتيل وحين يصطاد يتحرك بالتواءات جنونية (تشبه حركاتنا) ثم يهجم دون وعي منه على احشائه .وأثناء اندفاعه بالموت النيكلي الصغير الذي اصابه (والذي ارى اننا جميعا نحمله باحد الاشكال) يقوم بدوره الساخر اذ يأكل نفسه واهما انه انما يغذي نفسه ، ولسنا نفعل في القالب افضل منه .)

★

تعتبر قصة همنجواي الطويلة الاولى « الشمس تشرق ايضا » قصة الجيل الضائع ولقد طالما قارنها النقاد بقصيدة اليوت « الارض الخراب » فكلتاهما من نتاج ما بعد الحرب العظمى الاولى وكلتاهما تصفان عالما ضائعا ليس فيه من القيم ما يمكن التشبث به وفي كلتيهما نجد رجلا فقد قواه الجنسية : في الملحمة يكون الملك الصياد قد فقد قواه ونتج عن عقمه عقم في الارض التي يحكمها وفي القصة يكون البطل جيك بارنز قد اصيب في طاقته الجنسية نتيجة للحرب التي خرج منها وهي معركة عقيمة . ولندن هي مسرح « الارض الخراب » تصبح في القصة باريس ما بعد الحرب ، وكما نجد في « الارض الخراب » ان الصلة بين الجنسين صلة ميكانيكية غاب عنها الحب كذلك نجد في القصة علاقات تقرب من هذه الصلات . ثم ان السؤال الملحاح في « الارض الخراب » وهو : ماذا سنفعل الان ؟ يتكرر باشكال عدة في القصة وجوابه « لا شيء » ايضا ، او تجاريب عدة تنتهي بلا شيء . وبغية الهروب من هذا السؤال فان ابطال القصة لا يلعبون الشطرنج كزملائهم في الملحمة ولكنهم يقضون اوقاتهم في شرب متصل . وكما ان الملك الصياد في الملحمة يصطاد السمك فعلا فان بطل القصة يذهب الى صيد السمك بالفعل . غير ان القصة اشد امعانا في اليأس من الملحمة ، ذلك لان الملحمة تنتهي بالامل عند سقوط المطر ولكن القصة ليس فيها مطر وحين يهطل المطر في القصة التي تليها « وداعا للسلاح » فانه لا يمنح الحياة بل الموت .

تستعير قصة « وداعا للسلاح » عنوانها من قصيدة لجورج بيل بنفس الاسم ، وحيث يشعر الشاعر بالحنين للسلاح والحرب يكون وداع همنجواي للسلاح وداعا لحرب قذره تقتنص الشباب باسم المجد والشرف وترميهم قطعا من اللحم ليس لهم من يدفنهم .

ولكي نستطيع ان نكتشف جذور قصة « وداعا للسلاح » وهي من اجود ما كتب من القصص ، علينا ان نعود الى اقصوصة من اقاصيص مجموعة « في ايامنا » وهي المسماة « قصة قصيرة جدا » وهي فعلا قصيرة جدا اذ لا تزيد على صفحتين مع مقدمتها .

اما مقدمتها التي لا تتجاوز بضعة اسطر فلها اوثق الصلة بقصة « وداعا للسلاح » وفيها نجد نيقولا ادامس جريحا :

جلس نيقولاي تلقاء جدار الكنيسة حيث سحبوه ليكون بعيدا عن نيران المدافع الرشاشة في الشارع . كانت ساقاه بارزتين بشكل مضحك . لقد اصيب في عموده الفقري . اخذ العرق يتصبب من وجهه الذي كان وسخا . كانت الشمس تسطع على وجهه . النهار كان شديد الحرارة. رينالدى ذو الظهر الضخم بامتعته المتمددة معه انكفأ على وجهه نحو الجدار . نظر نيقولا الى الامام بوضوح . لقد انهار الحائط الوردي للبيت المقابل وتدلى منه نحو الشارع سرير حديدي معوج . نمساويان انطرحا ميتين فوق الانقاض تحت ظل البيت . في الشارع كان هناك موتى اخرون ... ادار نيقولا وجهه بعناية نحو رينالدى وقال « اسمع يا رينالدى ، اسمع ، لقد قمنا انت وانا بصلح منفرد . وظل رينالدى ساكتا تحت الشمس يتنفس بصعوبة(١).. »

وقبل ان انتقل الى الاقصوصة اود ان اشير الى قول همنجواي هنا « كانت ساقاه بارزتين بشكل مضحك » والجريح لا يكون مضحكا ايا كانت وضعيته غير ان همنجواي وهو احد سادات المتواضعين في التعبير يحاول اغفال المأساة مظهرا في الوقت نفسه احساسه الحاد بها. والحقيقة هي كما قال ت . س . اليوت ان الذين يملكون الشخصية والعواطف هم وحدهم المدركون لقيمة الهرب من الشخصية والعواطف (٢)

وبعد هذه المقدمة التي ليست لها علاقة ظاهرية بالقصة تبدا «قصة قصيرة جدا » A very Short Story وهي تروي بسرعة برقية. غرام جندي اميركي بممرضة تدعى لوز Luz وتعاهدهما على الزواج بعد ان يذهب الامريكي قبل صاحبته الى امريكا ليجد عملا فيها ولكي تلحق به ولكن المرضة تظل بعد الحرب في ايطاليا لتدير مستشفى هناك ويحبها ماجور ايطالي فتكتب الى صاحبها في امريكا ان ينساها لان غرامهما لم يكن سوى مسألة صبيانية وانها سوف تتزوج الماجور في الربيع ، ثم ان الماجور لا يتزوجها في الربيع ولا في اي وقت آخر. اما صاحبها في امريكا فيصاب بالسيلان جراء اتصاله بفتاة بائعة في احد المخازن .

في قصة « وداعا للسلاح » رمزان رئيسيان هما التقابل بين الحياة والسعادة اللتين توجدان في الجبل ـ اي ان الجبل في هذه القصة رمز للبيت والحياة السوية ـ وبين الموت والحرب ، ويزخر بهما السهل .ان الجبل هنا هو المكان النظيف الحسن الاضاءة . وحين يسبح هنري في النهر هاربا من الحرب فانه يقوم بما يشبه طقوس التعميد ، اذ انه يريد ان يولد من جديد ويغسل عن نفسه ادران الكراهية والكفاح الباطل . كما ترمز بين ما ترمز الى محاولة الفرد الخائبة لاتخاذ موقف مستقل نحو السلطة ، والسلطة تريد منه ان يحارب ولكن متطلبات كيانه منصبة على ترك حرب لا تعني شيئا بالنسبة اليه وهو يريد ان يقوم « بصلح منفرد» كالذي قام به نيقولا ادامس حين استلقى جريحا في مقدمه « قصة قصيرة جدا » غير ان الصلح المنفرد الذي قام به هنري في « وداعا للسلاح » كلفه كل شيء تقريبا .

---

(١) قد يبدو هذا الاسلوب المقطع البرقي غريبا على اللغة العربية ولكن هكذا اراده همنجواي وقد أحسست ان ربط الجمل بحروف العطف وغيرها مما يفسد التشنج في وصف الدمار . على انه ينبغي ان اقول ان همنجواي يستعمل حرف العطف And في غير هذا الموضع من ادبه ببراعة لا اظن ان احدا وفق اليها .

(٢) Tradition and the Individual Talent (التراث والموهبة الشخصية) في Selected Essays by T.S. Eliot

لقد قال همنجواي : ان « وداعا للسلاح هي روميو وجولياي My Roméo and Juliet والشبه بين المأساتين يقع على عدة طبقات . فأولا نجد ان الحب العنيف الذي نجم في كلتيهما ما كان في منشأه سوى مغازلة عابرة . هذا الى ان الحب في « وداعا للسلاح » يشتعل في خضم عالم عدو متخاصم لا ضرورة تدعوه الى التخاصم وهو يشبه العداء الذي كان بين العائلتين في روميو وجوليت . يضاف الى ذلك من اوجه الشبه ان كاترين في «وداعا للسلاح » تصير الى مصيرها في جو من الحتمية يشبه الجو الذي سارت فيه جوليت الى مصيرها وان كان السبب المباشر لموت كاترين مسألة ليست من صلب الجو الذي كان يهيء اسبابا كثيرة اخرى ، اذ ان موت كاترين كان نتيجة لعدم استعداد جسمها للوليد وهذا السبب يقابل الصدفة العارضة التي قتلت جوليت وهي منع الرسول من الوصول الى روميو في منفاه في الوقت المناسب . فالحرب اذن لم تكن السبب المباشر في قتل كاترين كما لم يكن العداء بين عائلتي مونتاجو وكابيوليت سببا مباشرا في قتل جوليت غير ان الجو المأساوي في كلتيهما يطبع حياتيهما بطابع الموت منذ اللحظات الاولى .

كتب همنجواي بعد قصة « وداعا للسلاح » كثيرا من القصص القصيرة وكتابين طويلين احدهما المسمى « الموت بعد الظهيرة » وفيه يصف همنجواي تكنيك مصارعة الثيران تتخلل ذلك اراء شخصية حول الحياة وفن الكتابة واسبانيا التي يحبها . وهذا الكتاب لا يعد من اجود ما خلق همنجواي الا لدى الاسبان الذين اعتبروه من افضل الكتب حول مصارعة الثيران .

والثاني قصته الطويلة « الملك والاملاق » To Have and Have Not وقد استطاع فيها ان يرسم صورة لمغامر افاق في كي وست Key West تعد من اقوى ما كتبه في رسم بطل يصارع وحده في عالم لا قانون له وهو يخفق في ذلك لانه يصارع وحده . وان الفصول المتعلقة بالمغامر هاري مورغان قل ان استطاع همنجواي نفسه ان يدانيها من حيث التلازم والبلاغة المنبثقة من صميم الفعل . ولو ان همنجواي اقتصر على هاري مورجان وصراعه الفاشل لكانت هذه القصة من اروع ما كتب ولكنه آثر ان يلقي ضوءا على شخصية مورجان الافاق المعدم الخارج على القانون بازائه صورا اخرى لاناس هم ضالة البشرية وعالة عليها لا من حيث انهم محرمون فحسب كهاري مورجان بل من حيث انهم عديمو الشرف تافهون جبناء غير مخلصين وقد كان يمكن لتلك الصور ان تكون جيدة لولا ان همنجواي بالغ في التقابل الساخر بين الصورتين حتى اصبحت محاولاته في البيان عنهم خطوطا كاريكاتورية اضعفت من قوة الخطوط التي رسم بها مورجان ولطفت من عنفوانها . غير اننا نجد محاولات همنجواي حتى في تلك الشخصيات المصورة بشكل كاريكاتوري تشع بعبقريته ونفاذ حسه ، من ذلك مثلا المقطع المتعلق بشخص وصولي استطاع في عالم المال ان يخدع الكثيرين وان يحصل على المغانم نتيجة انانية مفرطة دفعت بالكثيرين من ضحاياه الى الانتحار وهو الان نفسه يتأمل ذلك بعد ان ورط نفسه امام القانون بتزويره في دفع الضرائب « التجأ بعضهم الى رمي انفسهم من شقة عالية او من مكيث ، وبعضهم تجرعها بهدوء في كراجات ذات سيارتين بعد تشغيل المكائن واخرون استعملوا التقليد القومي بمساعدة كولت او سميث وويسون(١) ... هذه الالات الجيدة الصنع التي تضع حدا للارق وتنهي الندم وتداوي السرطان وتتجنب الافلاس ... هذه الادوات الامريكية الباعثة على الاعجاب، السهلة الحمل ، الاكيدة المفعول ، المهيأة بشكل مضمون لانهاء الحلم الامريكي حين ينقلب كابوسا ... والذين حطمهم استعملوا احد هذه الابواب العديدة للخروج ولكن ذلك لم يكن ليقلقه فانه يتعين على بعض الناس ان يكونوا خاسرين ولا يفتم لذلك سوى ضعاف القلوب .»

وقد وجب على هاري مورجان ان يكون اسدا في ذلك الغاب وهو يختلف عن ذلك المغامر المالي الذي يحطم كل من يتصل به في انه لا يفعل ذلك للذة السيطرة ولا حبا في الغنم الهين ولكن لانه ان لم يكن افاقا مغامرا ويضع قانونه يمت جوعا هو وعائلته . ثم انه رجل كامل الرجولة بعكس الكاتب جوردون الذي تلقي عليه امرأته سيلا شنيعا من السباب كما ان همنجواي يشير في هذه القصة الى الحياة الجنسية السوية المليئة بين هاري مورجان وزوجته ماري وكانه بذلك يرمز الى ان المعدمين يعيشون حياة اسلم واثرى من المتبطرين وذوي اليسار الهين. ولو قارنا علاقة هاري مع زوجته بعلاقة زوجة المخرج السينمائي التي تمضي اياما على احد اليخوت مع عشيقها الذي لا يستطيع بدوره ان يجعلها سعيدة لادركنا قصد همنجواي في هذا المجال .

اما موت هاري مورجان فانه يعتبر مهما في تاريخ تطور وعي همنجواي الجماعي وعزوفه عن الفردية المطلقة التي كانت تسود ادبه السابق ، يقول هاري مورجان وهو في النزع بعد ان اصيب في مقتل :

« ما من جدوى هناك .. لا يستطيع الانسان وحده ان يفعل شيئا.. ليس للانسان وحده من حظ .. ثم اغلق عينيه . لقد اقتضاه هذا الكلام وقتا طويلا لينطقه وقد اقتضاه كل حياته ليتعلمه . »

وهذا تبشير بالانتظام في الجماعة الذي تعبر عنه قصة همنجواي التالية « لمن تقرع الاجراس »

*

ان قصة «لمن تقرع الاجراس» اطول قصة كتبها همنجواي حتى الان وهي على ما فيها من ثغرات قصة جيدة جدا .

لهمنجواي براعة خاصة في اختيار الاسماء لكتبه وقصصه وعنوان قصة « لمن تقرع الاجراس » مأخوذ من الشاعر جون دون Jhon Donne حيث يقول : « ما من انسان جزيرة وحده ، كاف بذاته . ان كل انسان جزء من القارة ... ولو ان قطعة من الساحل جرفها البحر فان اوروبا تصبح اقل رقعة .. وان موت اي انسان نقص في حياتي لاني واحد في البشرية فلا تتساءل اذن لمن تقرع الاجراس اذ انها تقرع لك . »

تصور هذه القصة اناسا بسطاء في حرب مع الفاشستية بينهم رجل امريكي مؤمن بهم ومحب لهم .

ان ادراك همنجواي لقبح الفاشستية بعيد الامد فكان سنة ١٩٢٤ يتوجس شرا منها في حين كان كتاب يدعون فهما للقضايا الاجتماعية مثل هـ.ج. ويلز يعبرون عن تفاؤلهم بتسلم موسوليني للسلطة في ايطاليا . والحق يقال ان همنجواي ليس كاتبا متفلسفا ولكنه كاتب ذو حس سليم في اغلب الاحيان وهو الذي كتب عن الفرقة الايطالية التي ارسلها موسوليني لتحارب في اسبانيا والتي ابيدت عن آخرها فقال ابان احتفالات النصر التي قام بها الجمهوريون ان هؤلاء الصبية الذين ارسلهم موسوليني ليحاربوا باسمه ماتوا دون ان يعلموا ان عدوهم الحقيقي الذي كان يجب ان يحاربوه انما هو موسوليني نفسه ثم انه اثنى على شجاعة هؤلاء الصبية المساكين الذين قاتلوا في المكان الخطأ .

ورغم كل ذلك فان هذه القصة لا يمكن اعتبارها وثيقة ممتازة من وثائق الادب السياسي. والرجل الامريكي بما انه يمثل همنجواي نفسه الى حد كبير

(١) انواع من المسدسات

فان اشتراكه في الحرب الاسبانية منبثق بالدرجة الاولى من حب همنجواي الشديد لاسبانيا اكثر مما هو مستوحى من تعمق همنجواي في الفاشستية باعتبارها قوة ظلامية . ان موقف همنجواي طوال حياته من القضايا الثقافية (والسياسة قضية ثقافية كبرى في هذا العصر) كان موقفا لا يعبر عن تأملات فكرية توازن وتقيم بتجريد نظري ، وبعبارة اخرى ان همنجواي كاتب خلاق وليس متفلسفا .

في قصة « لمن تقرع الاجراس » اتخذ تكنيك همنجواي اتجاها جديدا لم يكن ناجحا في كل جوانبه فاولا نجد ان القصة ذات مدى زمني لا يزيد على ثلاثة ايام بينما كرس همنجواي ما يقرب من الخمسمائة صفحة لمعالجته اي انه حاول التحليل والتفسير والتعليق على الحوادث بشكل لم يفعله من قبل ولا يتفق مع متطلبات عبقريته التي تبدع في خلق احداث تتحدث ببلاغة كامنة فيها .

على ان همنجواي نجح في خلق شخصيات حية مقنعة كل الاقناع منها اولا شخصية بيلار زوجة بابلو تلك المرأة ذات الحس السليم والبطولة المذهلة والايمان الفلاحي الارضي بالقضية وهو اقوى انواع الايمان . وانسيلمو العجوز الذي لا يحب القتل ولكنه يقوم به مكرها ويتمنى ان يعيش بعد انتهاء الحرب حياة لا يؤذي فيها احدا يكفر عن التقتيل الذي قام به . كما نجح همنجواي في منح صورة كاملة للمنهارين الذين يدخلون معارك كهذه حبا بالدماء وهم بذلك يفقدون القابلية على الكفاح الشريف ويجبنون حين تحتاج الامور الى تضحية ونبل حقيقيين ،واستطاع ان يرمز الى كل ذلك خلال شخص بابلو رئيس تلك الجماعة ، ويجب ان لا ننسى كذلك شخصية ايلسودورو وموته هو وجماعته تحت نيران الطيارات وان الفصل المتعلق بموتهم هو من اروع ما كتب همنجواي من الفصول .

كما ان في القصة حوارا معجزا ككل حوار همنجواي الذي قال عنه الكاتب الانجليزي ايفلن « كان يجب على همنجواي ان يسجل براءة اختراع بحواره العجيب » .

اما الجو الحسي في هذه القصة فليس في ادب همنجواي ما يضارعه شعرا وعمقا .. ويمكننا القول ان هذه القصة رغم كل شيء ستظل من مآثر همنجواي الممتازة .

✶

لقد قيل ان همنجواي لم يستطع ان يخلق امرأة مقنعة وما كاترين في « وداعا للسلاح » ولا ماريا في « لمن تقرع الاجراس » سوى ظلال تدور في جو حلمي مما يدور في احلام الصبيان عن المرأة الملائكية المشتهاة . وعجيب ان يقول مثل هذا الرأي ناقد كبير جدا مثل ادموند ويلسون وهو رغم نفاذ بصيرته في كتاباته النقدية الاخرى لم يول همنجواي الاهتمام الذي يستحقه . على ان كارلوس بيكر Carlos Baker في كتابه القيم عن همنجواي كتب ردا شافيا ملخصه ان نساء همنجواي يعشن في عالم متشنج فلا تراهن في بيوتهن بين المطابخ وغرف الضيوف وان كن في اعماقهن ينظرن الى البيت كمثال وغاية وهذه الحياة في اتون الحرب والمغامرة جعلت منهن بالنسبة الى الابطال رمزا للمكان النظيف الحسن الاضاءة فأينما يكن البيت او الحنين اليه . على انه من المسلم به ان عالم همنجواي عالم رجولي وليس للمرأة دور فيه سوى دور الاتمام والتكامل مع الرجل . انها تهب الرجل ما ينقصه من استقرار .

حين يذهب هنري مع كاترين في « وداعا للسلاح » الى فندق في ميلانو تقول كاترين عند دخولها انها تحس كأنها عاهرة ولكنهما ما ان يستقرا فيه حتى يشعرا كأنهما في بيتهما .

يحاول همنجواي ان يصور بعناية مستوى سوي لاخلاقية المرأة وهو يشير الى هذا المستوى حتى يجعل نساءه يخرجن عليه ، سواء اكان خروجهن نتيجة لتكوينهن الداخلي كالحال في بريت اشلر بطلة « الشمس تشرق ايضا » ومارجو بطلة « حياة فرانسيس ماكومبر السعيدة القصيرة» ام نتيجة للظروف القاهرة التي يقفن تحتها كاغتصاب الفاشست لماريا في « لمن تقرع الاجراس » . اما ماريا فان عودتها للمستوى السوي للاخلاقية النسوية بعد الصدمة التي احدثها الفاشست في كيانها للنفس رهين بحب روبرت جوردان لها وما محاولة المرأة بيلار في التقريب بين روبرت جوردان وماريا في مدى الايام الثلاثة التي سوف يعيشها جوردان غير رمز لتطهير ماريا من اثر الاغتصاب عن طريق حب سوي .

لقد قام الفاشست بقص شعر ماريا بالاضافة الى اغتصابها وان شعور ماريا بأن شعرها سيطول اشارة الى استعادتها للانوثة السوية وتصالحها مع الجنس الرجولي في شخص روبرت جوردان .

ثم ان هناك جانبا آخر يجب ان لا يهمل بخصوص نساء همنجواي وكونهن تجريدا لعاطفة غنائية على حد قول ادموند ويلسون وهو انّنساء همنجواي على العموم مظهر من مظاهر الشعر في العالم الرجولي الجاف وهن بوجودهن يخففن حدة التوتر الذي يشد الرجل ويكدن يكن نغمة رقيقة ازاء النغمة الحادة التي هي الرجل Point Counter Point

✶

قال همنجواي سنة ١٩٤٢ « ان اخلاص الكاتب للحقيقة يجب انيكون من القوة بحيث يبدو ما يبدعه من خلال تجربته اكثر صدقا من اي واقع حقيقي » . ولم يكن همنجواي حين قال ذلك القول قد كتب اقصوصته الطويلة « الشيخ والبحر » . بيد ان اخلاصه لفكرته تلك (والتي قالها بشتى الاشكال) يظهر على اشده وأعمقه في هذه الرائعة العجيبة . ان كل شيء فيها واقع ملموس غير ان قراءتها تحدث جوا اسطوريا يلامس الواقع ثم ينفلت عنه الى شطئان لا ترى وأصوات لا تسمع . وهي كما قال همنجواي في معرض الحديث عنها « لقد حاولت ان اخلق شيخا حقيقيا وصبيا حقيقيا وكواسج حقيقية وبحرا حقيقيا ولئن استطعت ان اجعل منها اشياء حقيقية بشكل كاف فانها قد تعني اشياء كثيرة » .

موضوع هذه القصة هو موضوع همنجواي الملحاح : انها قصة الرابح لا يأخذ شيئا . ما الذي استطاع ان يأخذه جيك بارنز في « الشمس تشرق ايضا » ؟ وهو الذي خرج من حرب ربحت بالفعل وأحبته امرأة لا يستطيع ان يحبها . وما الذي استطاع ان يناله هنري في«وداعا للسلاح » ؟ لقد ربح معركة في عقد صلح منفرد وتركه لحرب لم يعد يؤمن بالكلمات التي تحثه اليها من قدسية وتضحية ومجد ، ولقد ربح حب كاترينولكنه لم يأخذ شيئا . فان كاترين تموت مع طفلها وتتركهوحيدا مقتلع الجذور في ارض غريبة . وما الذي ناله روبرت جوردان ؟ لقد نجح في تدمير الجسر الذي انيط به تدميره ولقد احبته فتاة تحلم ان تنشيء معه بيتا سعيدا ، ثم انه يموت وحده .

واخيرا ما الذي ناله الشيخ سانتياجو ؟ لقد اصطاد سمكة كبيرة جدا كانت من الجمال والنبل والجلال بحيث لم يعد الناس في نظره جديرين بأكلها ،غير انالكواسج تأكلها فيتركها فيالنهاية هيكلا عظميا على الشاطيء.

✶

لا يعرف الاسطورة مؤلف كما لا يعرف للاغنية الشعبية مؤلف ولا

ملحن . انها اشياء تنبثق من اعماق الوعي الانساني وادراكه للحياة على شكل رموز . وكأن همنجواي حاول ان لا يبين عليها انها كتبت بخط يده بل يتحدث بها صوت بعيد لا مشخص ، صوت ليس هو صوت المؤلف وانما صوت الحقائق والوانها وظلالها التي لا تنتهي تموجاتها .

من خصائص الاسطورة انها بسيطة كبساطة الغرائز لها قابلية للتعقيد كما تتعقد الغرائز . ولا تعدو أية اسطورة في الكتاب المقدس او التراث اليوناني او أية اسطورة من الاساطير النوروية او غيرها ان تكون مسألة ساذجة ولكن تعقيد سذاجتها واعادة استكشاف معانيها امور لم تنته بعد وليس يظن لها ان تنتهي وكل زمان يضفي عليها فهما جديدا منبثقا من ادراكه للوجود المعاصر . ان اوديب الاساطير الاغريقية لم يكن بالتعقيد الذي اراده له جيد كما لم تكن انتيجون صوفوكليس تشير الى ما تشير اليه انتيجون جان انوي من قيم سياسية اوجبت اعادة تفسيرها وفقا لضمير عصر انوي . والفنان ليس سوى خلاق اساطير او هو بني بشكل من اشكال النبوة (والانبياء فنانون بشكل من الاشكال) . وكما قلت قابلية الفنان على خلق الاسطورة وتضاءل ما يثبت ان عمله تبرعم عن وعي غريزي بالوجود قلت قيمة انتاجه الفنية . وان النظر في اعمال فولتير ووايلد وبرناردشو وزولا يؤيد انها لم تكن فنا بل مناقشات عقلانية وهذا في رأيي هو السبب في ان سارتر اقل اهمية (من حيث الجودة الفنية) من كامو ذلك بأن سارتر مناقش وكامو يتحدث بصوت نبي . ولو وضعنا هؤلاء الفنانين الذين اخفقوا في خلق الاساطير بازاء كبار الفنانين الذين نجحوا في ذلك ـ مثل شكسبير ودستويفسكي وجوركي وهمنجواي وشيخوف ومالرو ولوركا وفولكنر وتستطيع القائمة ان تتضخم كثيرا ـ اقول لو وضعنا اولئك بازاء هؤلاء لاتضح ما اعني بالاسطورة . انها لا تعني الخيال والا فأي شيء اشد امعانا في الخيال من كانديد لفولتير . كما انها لا تعني الواقع وحده فلو كان ذلك لاصبح زولا فنانا كبيرا . انها شيء قد لا يمكن فهمه كله دفعة واحدة ولكنه يدرك على مستويات عدة، مستواه الحرفي وما وراء المستوى الحرفي الى عدة طبقات في جيولوجية الوعي . مهما يكن حوار برناردشو ذكيا (وبرناردشو اذكى من كثير من الفنانين الذين هم افضل منه) يدرك على مستواه الحرفي . اما حوار شكسبير او تشيخوف (في مسرحياته على الاخص) فقد يدرك في حدود الفاظه ويدرك ايضا في ابعاد عدة . والاسطورة حتى اذا لم تكن تفهم بكافة ابعادها فانها تقع موقع اغنية جيدة ، وهي ان لم تفهم بالعقل تدرك بالشعور .

والاغنية التي نحن بصددها بعد هذه الافاضة التي قد تكون فضولا ونفاية هي « الشيخ والبحر » . ولو انك سألت الكثيرين ممن قرأوها واعجبوا بها ان يبينوا اسباب اعجابهم لتعسر عليهم الجواب : لقد اعجبتهم وكفى . وقولهم صحيح فهي اغنية وهل تستدعي الاغنية اسبابا للاعجاب بها ؟

غير ان الاغنية الجيدة تطرب بلحنها قبل الفاظها وهذا بعد واحد ثم يكون لها وقع اشد عمقا لو فهمت الفاظها وعماذا تتحدث وهذا بعد ثان ونمضي الى بعد ثالث اكثر نفاذا حين ندرك البناء الموسيقي لها كما ان اصداء الاغنية الجيدة في الذاكرة تشكل بعدا آخر او ابعادا اخرى وأظن هذا هو الذي يقصده همنجواي حين قال يمكن ان يكون للكتابة بعد ثالث ورابع وخامس .

قبل كل شيء ولدى كل قارىء على وجه التقريب تبعث اقصوصة « الشيخ والبحر » رموزا مسيحية . سانتاجو في البحر ممسكا الخيط بيد جريحة ويده الاخرى على الجانب الاخر ، وحين ينطرح اخيرا على الخشب مادا يديه الى الجانبين اعياء ، انما هو صورة المسيح على الصليب .

ليس همنجواي كاتبا متدينا بالمعنى الحرفي للكلمة . ولكن الدين عنده كما عند آخرين من الفنانين العباقرة رموز تتعرف بها الانسانية على نفسها .

تجري القصة اذن في اطار مسيحي لتفصح عن محبة وتواضع ومعانقة الكون كله . فالشيخ سانتاجو « كان من البساطة بحيث لم يتساءل متى ادرك التواضع . ولكنه عرف انه ادركه كما عرف انه لم يكن امرا مخجلا وان ادراكه لا يثلم الكبرياء الحقة » .

والشيخ حين يصارع السمكة الضخمة ويغلبها نجد ان كبرياءه قد تسربت خلال تلك المعاناة ولم يبق له سوى تواضع جم . ونرى الشيخ يقول اثناء تجربته :

« انت تقتلينني ايتها السمكة ولك الحق في ذلك . اني لم ار شيئا اعظم منك ولا اشد جمالا ولا هدوءا ولا نبلا . »

وهو يخاطب السمكة الكبيرة بعبارات الاخوة ويستضيف الطيور الصغار المتعبة على الخيط الذي يشده الى السمكة ويتكلم معها بمحبة .

يشبه كارلوس بيكر الشيخ سانتياجو بالملك لير ويقول :

« لدى قدوم اول الكواسج تبدأ مأساة الحرمان التي تثير من الشفقة ما يثيره الملك لير وهو يعاني تحت تسلط بناته ذوات قلوب الكواسج . ان فرسان الملك الشيخ المائة وهم البقية الباقية من علامات سلطته وجلاله الملكي تنتقص خمسا وعشرين في كل مرة . وكذلك فان الكواسج تلتهم لقما وزنها اربعون رطلا في كل مرة حتى تحيل تلك الانتهاشات سمكة سانتياجو ذات الثمانية عشر قدما والف وخمسمائة رطل الى الهيكل العظمي الذي يأتي به الى الشاطىء »

والمقطع التالي من القصة نفسها يشير بصورة واضحة الى المسيح على الصليب :

« وحين رأى الكوسج الثاني صاح آي » وهي كلمة ليس لها ترجمة وقد لا تكون سوى الصيحة التي يطلقها رجل دون ارادة منه اذ يشعر بالمسمار يخترق يده وينغرز في الخشب » .

كان الشيخ يحدث يديه اثناء مجالدته ويدعوهما اخواتي وهما كيدي اي مصلوب زميلتان له في الالم وقد اصبح الان ثلاثة اشخاص بدلا من شخص واحد .

ويمكن للشيخ ان يزداد قوة وصبرا لو تهيأ لهؤلاء الاشخاص الثلاثة ان تتحد وتتشابك في تحمل العبء المضني.

يقول فيليب يونج :

« لو سألنا انفسنا ما الذي تدور عليه قصة « الشيخ والبحر » في المستوى العام الرمزي ، فان جوابنا لا يمكن ان يكون سوى : الحياة وهي افضل شيء تطمح حكاية ان تدور عليه . لقد كتب همنجواي عن الحياة على انها مصارعة لقوى طبيعية عسير قهرها وليس للانسان في ذلك سوى ان يخسر غير انه مستطيع ان يسيطر على نفسه بشكل يجعل من خسرانه رفعة ويحيله الى نصر .

ان الاسود التي يحلم بها الشيخ اثناء مناهضته للقوى الهائلة التي كان عليه ان يواجهها وحده تشير الى حنين نحو صباه . وتشحن القصة بتيار شعري يمضي ويعود.وكذلك يمكننا اعتبار الصبي مانولو رمزا لصبي

الشيخ.وتذكر الشيخ لصباهمن الاشياء التي تساعدهوتشد في عضده . ولهذا نراه كلما اشتدت ازمته يقول : ليت الصبي كان معي . ويفعل فيه هذا القول فعل التعاويذ الباعثة على الثقة والتفاؤل فنراه بعدها مباشرة يسيطر على نفسه ويقضي على العقبة التي استدعت مثل هذه الصلاة . فذكرى الصبي تشبه صلاته للعذراء من حيث انها رقية تطرد الهم والمحن .

ويلاحظ كارلوس بيكر من وجهة التركيب الفني لهذه الرائعةانهمنجواي يستخدم فيها القانون السيكولوجي في رواية القصص . وهو قانون الشد والارخاء ، وهو يرى ان الاسود تقوم بعملية الشد اما الصبي يؤدي دور الارخاء كما اننا نجد الشد والارخاء يذكران بالنص في صلب القصص وذلك حين يشد الحبل مرارا الى حد قطعه ثم يسترخى بعد ذلك لدى صعود السمكة .

وفي هذه القصة نجد الشيخ عارفا بفن الصيد مدركا لجميع الحيل وهو يحب صناعته فهو اذن نموذج جيد لبطل همنجواي الاصيل : رجل مخلص للقانون الاخلاقي المنبثق من الفعل الذي يقوم به .

لقد قال همنجواي في « الموت بعد الظهيرة » ان على الكاتب انيعنى بفن عمارة الكتابة Architecture وليس بفن التزيين الداخلي enterior Decoration ولو نظرنا الى جميع التفاصيل الدقيقة التي يذكرها همنجواي خلال ادبه لما وجدنا فيها حيدة عن قوله هذا اذ هي ليست من فنون التزيين الداخلي كما تكون التفاصيل في اغلب القصص .عناية همنجواي بدقائق الفعل تنعكس على البناء العام للقصة ولا تظل اشياء محنطة في الداخل .

لقد حاولت استعراض اعمال همنجواي الجيدة وبقي ان نعرف شيئا قليلا عن همنجواي الرجل اذ انه احد الفنانين الذين يتحد ادبهم مع شخصياتهم وكل تعرف على شخصياتهم يلقي ضوءا على اعمالهم . وما يعنينا من شخصه ليس الاحداث ، او لنقل ليس الاحداث التي مرتعليه فحسب وانما مقومات شخصيته وجذورها . واذ نشرع في التحدث عنه فسوف نجد لزاما علينا ان نعود الى ادبه مرات ومرات .

ان معرفتنا لشخصيته تدل اولا على الشجاعة العضلية التي تحتل مكانا معبرا في ادبه . فقد درس همنجواي الملاكمة وهو في سن الرابعة عشرة وكسر انفه جراء ذلك ثم بعد هذا اصيبت احدى عينيه اصابة احدثت بها اذى دائما ولكنه اصر على تعلم الملاكمة حتى اجادها اجادة المحترفين .

وحين دخلت الولايات المتحدة الحرب العظمى الاولى ذهب ليتطوعولكنه رفض للاذى الذي في عينه غير انه تحايل على ذلك بأن صار سائق سيارة اسعاف للصليب الاحمر وفي الجبهة الايطالية اشترك في معركة عنيفة جدا خلفت جرحا بليغا في ساقه مما حدا بالحكومة الايطالية ان تنعم عليه بوسام الشجاعة .

عاد بعد الحرب الى اميركا وتعسر عليه الحصول على عمل ثابتوتعرف على الكاتب شيروود اندرسن وبدأ يكتب قصصا قصيرة كانت الصحف ترفضها قائلة انها لا تشبه القصص . غير ان الصحف الالمانية والاوروبية اخذت تنشر بعضها فنبهت بذلك الصحف الامريكية اليه . وبعد ان نشر في مجلة اتلانتيك الشهرية اقصوصته الرائعة « خمسون الف دولار » جاءت اليه العروض تترى من عديد من الصحف طالبة منه ان يكتب قصصا لها بشكل ثابت وكانت العروض مغرية جدا ولكنه رفض ذلكقناعة منه بأن كتابته تنحط لو علم ان ما سيكتبه مباع مقدما وكان يقول : النزاهة في الكاتب كالبكارة لدى المرأة ، لا تستعاد بعد فقدها ، ولو انه رضي بتلك العروض ولم يكره نفسه على تعلم فن الكتابة تعلما صبورا بعد يقينه من وجود الملكة عنده لظل الان كاتبا يزود الصحف الانيقة بما يسلى . وأخذ يعالج الكتابة كما يعالج الشيخ سانتياجو فن الصيد : بسيطرة واخلاص كاملين . وهذا مما يلقي ضوءا على ادبه من حيث الالتزام بالقانون الاخلاقي للفعل .

فضل همنجواي اذن ان يعيش اول مرة في فاقة تكاد تكون تامة وهو يريد ـ كشيخه في البحر ـ ان يذهب مستوحدا بعيدا جدا عنالشاطىء ليصيد السمكة الكبيرة . هذا الاخلاص الحار الهادىء لصنعة الكتابة وهو يتمسك به بكل تواضع ، هو في الوقت نفسه كل ما يملكه من كبرياء .

والعجيب في الامر ان اسلوبه الحي النابض التلقائي لا يمكن ان ينم علىان كاتبهيعاني فياختياره كلكلمة وحركة ما لا يعانيه اكبر المتكلفين من قاصدي البلاغة اللفظية . وهو يكابد جهدا لتكون النتيجة تلقائية وانسيابا رشيقا ولتكون جمله وكأنها قيلت لتوها عفو الخاطر ولتكون حروفه كأن لم يجف عليها المداد . من الذي يستطيع ان يتصور ان همنجواي كتب قصته المنسابة « وداعا للسلاح » عدة مرات وكتب الفصل الاخير سبع عشرة مرة حتى استقر على رأي فيه ؟

وكل كلام عن همنجواي انما يبدأ وينتهي من جديد بأسلوبه .وليس من كاتب في القرن العشرين استطاع ان يؤثر استعماله للغة قدر ما استطاع همنجواي بأسلوبه الطبيعي البسيطالذي لا يتكبر على اللغة العامية ويهبها فصاحة مشرقة ، والذي يبدو انه عار عن كل عاطفة وهو عار بالفعل عن كل ميوعة ودعارة عاطفية Sentimentality مستعينا بأقل عدد من الكلمات

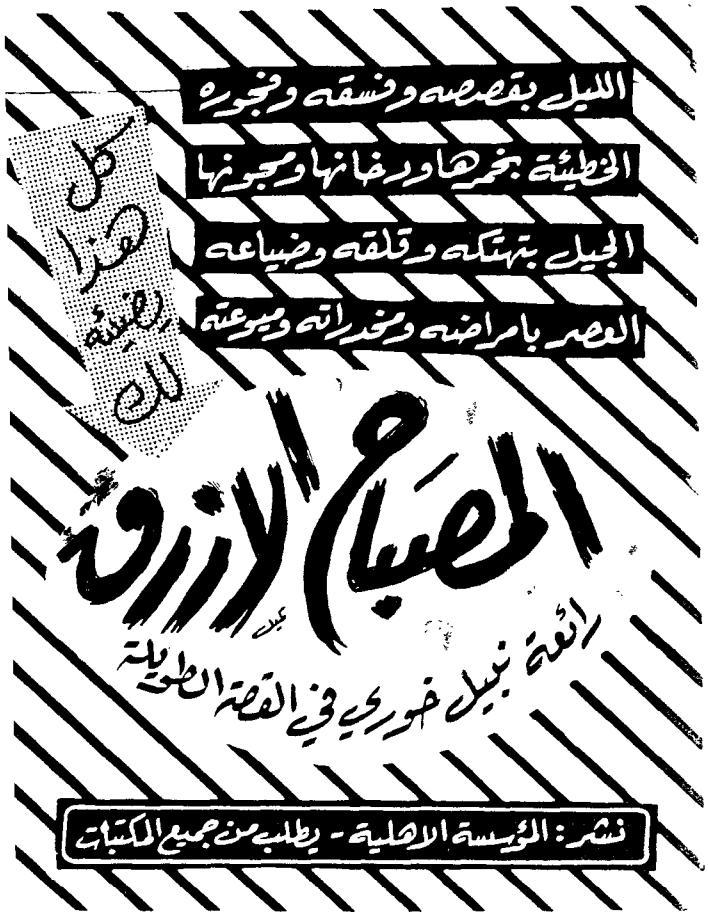

جلها تلمس وتحس ، هاجرا كل كلمة ضخمة فقدت حدتها من كثـــرة الاستعمال وسوئه (١)

ولقد افاد همنجواي من آخرين في خلق اسلوبه ثم طبعه بطابعه اهمهم الكاتبة الاميركية جيرترود شتاين التي كانت في باريس سني العشرين وقد تعلم منها همنجواي التكرار في الجملة البرقية المشحونةبالايحاءات . وقد فاقها همنجواي بعدئذ في هذا الاسلوب العجيب . كما افاد ايضـــا من الكاتب الامريكي مارك توين في استخدام اللغة العامية استخداما معبرا وكذلك في التجرد الموضوعي والتواضع في التعبير حتى اصبح اسلوب همنجواي افضل من اسلوب مارك توين في كل هذه الحسنات .

كانت ام ارنست همنجواي تحب الموسيقى وتعزفها وقد علمت ابنـها الصغير مبادىء العزف على الفيولونسيل غير انه لم يكتب لهمنجوايان يكون رجل صالونات بل رجل الهواء الطلق فترك الموسيقى ومال الى مـا يميل اليه ابوه الذي اهدى اليه بندقية صيد وهو في سن العاشرة .

والتجربة الشخصيةهي التي جعلت من همنجواي مستعبدا للحقيقة المحسوسة وهو لم يكتب ابدا عما لا يعرف ولم يصور ما لم يجرب وهـو في حدود ثراء تجربته (وهي بالطبع لا تحوي كل شيء) استطاع ان يخلق عالما اشترك فيه الخيال اشتراكا لا يغير من فحوى الحقيقة التي عاشها ابطاله : صور وظلال منه وارقهم ارقه وخوفهم خوفه (بعـد الحرب العالمية الاولى) وشجاعتهم شجاعته (بعد ان تخلص من عدم القدرة على النوم في الظلام وتغلب على كل الافكار التي اوحت اليه قصته القصيرة الرائعة : انا الان اضطجع) كما ان احترام ابطاله لهنهم يتحدر من احترامه لفن الكتابة ونبلهم نبله وفشلهم فشله . كل ذلك دون ان يقحم نفسه بشكل رومانتيكي في ادبه . فما اندر هذه الظاهرة في تاريخالادب: موضوعية تنبثق من التجارب الشخصية وتجرد عاطفي في تصوير عواطف عاناها .

ولسنا بسبيل ذكر كل خطوات حياة همنجواي بل يجدر ان نشيـــر الى القضايا الرئيسية منها كاشتراكه في الدفاع عن قضية الشعـــب الاسباني الذي غدر به الفاشست وقد ساهم همنجواي في ذلك بكل ما يستطيع من قوة مادية وادبية وعقلية .

وككل شخص يحتل هذه المكانة الرفيعة ويعيش حياة مليئة تدخل الاساطير في الاخبار عنه وتروى عنه روايات قد يصعب تصديقها ولكن ما يمكن تصديقه هو ان شجاعته وحذقهللصيد والرماية والملاكمة وكرم يده الذي يبلغ حد الاسراف الجنوني امور لا يتطرق اليها الشك .

لقد اصيب همنجواي في الحرب العظمى الاولى واستخرجت ٢٣٧شظية من ساقه وقد رأى كثيرا من« الخوذ المليئة بالادمغة الممزقة » وكان ان حسب مرة في عداد الاموات . وهذه التجارب مع الموت جعلته بعـــد الحرب الاولى وجعلت ابطال قصصه الاولى (وهم انعكاسات منه) يخافون النوم في الظلام ويحاولون ان يهربوا من قتل انفسهم بشتى الاساليـب التي تصرف طاقة الموت فيهم ، ان بصيد الحيوانات الضارية ام بمصارعة الثيران ام بالملاكمة ام بغير ذلك لكي يقهروا ما يمكن ان يسمى«بمركب الموت »فيهم .

على ان همنجواي وجد في الكتابة القوة العظمى للتغلب على آثـار الجراح القديمة . وللكتابة عنده قيمة شفائية سحرية حتى لقد سألـه احد الصحفيين عن اسم محلله النفساني فأجاب انها آلته الطابعـــة « كورونا رقم ٣ »

ثم انه تغلب على مخاوفه المتبقية عنده من الحرب العظمى الاولـــى بمجرد مواجهة الخطر الصرف ونسيان الذات .ويشهد الذين اشتركوا معه في الحرب العظمى الثانية انهم لم يشهدوا في حياتهم شجاعة خارقـــة كشجاعة همنجواي . ولقد قال همنجواي في تعريف الخوف « انـــه عدم القدرة على ايقاف الخيال عند الخطر » وقد استطاع ماكومبر ان يقضي على الخوف بايقافه لعمل الخيال .

---

(١) ان سوء استعمال الكلمات وتكرارها الميكانيكي الاجوف مسألةيجب على ما ارى ان نهتم بها كثيرا فأنت ترى كلمات جميلة ذات مدلول معيـن تستعمل استعمالات قبيحة . وتحضرني الان كلمة سمفونية اذ يقال : هذه القصيدة سمفونية رائعة . وبعضهم يتنطح كالاستاذ جليل كمال الديـن فيستعملها مصدرا اذ يقول مثلا : وأجاد فلان في سمفنة موضوعه او قصيدته او عواطفه . ولسنا نعرف ان سمفنة تعني شيئا على الاطلاقوليس هناك في اللغات الاوروبية ما يقابلها وكلمة Symphonisation لا توجد في اي قاموس . اغلب الظن ان كثيرا ممن يستعملون كلمة سمفونية (ولا اعني احدا معينا ابدا) لم يسمعوا سمفونية مطلقا وان حاولـــوا الاستماع اليها فان السمفونية تظل في واد وهم في واد اصابعهم فـــي انوفهم توسعها نبشا . ثم لماذا السمفونية بالذات في معرض الحديث عن اجادة في التعبير ؟ ان كل ذلك لان الموسيقى اكمل وسيلة للتعبير (وهـو قول اومن به) كما قال به شوبنهاور ! وفقا للنكتة القائلة بأن فراشا فـي محكمة فاخر بأن راتبه وراتب الحاكم مائة وثلاثة دنانير والحاكم فيهذه النظرية هو شوبنهاور بالطبع) . فليســـت السمفونيـة دائما اجـود الموسيقى ولست ادري من الذي بدأ هذه الاكذوبة القائلة بأن الموسيقى الجيدة هي موسيقى السمفونية فحسب . ان انبل سمفونية ألفت هي تاسعة بيتهوفن ولكن اين تقف بازاء رباعياته الوترية الخمس الاخيرة ؟ وأين تقع سمفونيات موتسأرت ذات الجمال الطاغي من اوبراته التي هي بلا شك أشد اذهالا من سمفونياته؟ولكننا لمنسمع كاتبا يقول : ما اروعهذه القصيدة انها كالاوبرا . واذا كانت السمفونية هي كل الموسيقى او افضل الموسيقى فقد وجب ان نشطب على موسيقيين عباقرة لم يؤلفوا سمفونية واحدة قط مثل باخ وفيفا لدى وفيردي وفاجنر ورافيل وديبوسي وفوريه وموسوكورسكي وشوبان وغيرهم وغيرهم ولن تسمع احدا تهمه الموسيقى في شيء قليل او كثير يجدف فيقول ان سمفونيات سيبيلوس وبروكنـر وتشايكوفسكي مجتمعة بكل جمال الحانها تفضل آلام القديس ماتيو لباخ.

والاستعمال الميكانيكي الرديء لكلمات كالشكل والمضمون والتكنيـك والالتزام والواقعية والواقع والواقعية الفوتوغرافية والمونولوج الداخلـي وعطاء معطاء وتجاوب ومركب النقص وعملاق وعملاقة ووحدة الموضـوع والخروج عن الصدد (ورب خروج عن الصدد افضل من التمسكبوحدة الموضوع وهذا دفاع هزيل عن خروجي الان عن الصدد) وغيرها مـن آلاف الكلمات التي يخنقها الكاتب بمجرد استعمالها انما يعمل علـــى انقاصالقاموس فيصبحبمرور الزمان القاموس الذي ذكره جورج اورويل في احدى قصصه (لاسباب مختلفة) واشار الى تناقص كلماته في كـــل طبعة جديدة . ان من واجبات الاديب العربي ابان هذه النهضة الادبية التي ليس فيها شك ان يقوم بما سماه مالارميه « تصفية لغة القبيلة ». ان اللغة دون كل هذا التدمير والتخريب فيها اداة تقصر عن البثالبعيد والمنتظر من الكتاب ذوي الحس السليم والنزاهة الفكرية ان يشحنـــوا الكلمات التي تموت بمعانيها كما تشحن البطاريات حين ينتهي الكهرباء المخزون فيها .

وجانب آخر من همنجواي خليق بالمعرفة هو قابليته على التعلم وعلى تعلم اشياء بعيدة الصلة بفن الادب .

فالمعروف انه لم يكن له حظ التحصيل الجامعي كما انه من المعروف ايضا انه يحتقر الادب الذي لا ينبثق عن التجربة الحارة ويربأ بما يسميه «الدائرة الكيركجاردية » اي ادب التأملات الفلسفية المجردة وهو من الذين يكرهون بروست (وهذا عيب فيه) وهو لم يحاول ان يخلق في ادبه جوا ثقافيا حتى في قصته « ثلوج كليمانجارو » التي تدور حول كاتب فاشل ينتظر الموت من عفن اصاب ساقه وهو في غابات افريقيه(1)

فاذا علمنا كل هذه الحقائق عجبنا بعد ذلك لاهتمامات همنجواي الدراسية وكأنه طالب يحضر لشهادة الدكتوراه . فهو بالاضافة لاجادته الفرنسية والايطالية والاسبانية وقراءته لاهم الانجازات الادبية فيها (وهو قارىء ممتاز للادب الجيد) يعرف فنونا كثيرة يشهد بها الثقاة كفن للتاريخ الحربي والتاكتيك العسكري والملاحة وجغرافية البحار والانواء الجوية وغير ذلك .

يلاحظ انه ليس في الادب كله اشخاص يشربون الخمر بالكثرة التي يشربها اشخاص همنجواي. والحقيقة ان همنجواي يزيد على اشخاصه في كثرة الشرب .وهو خبير ذواقة في الخمور ويروى انه عرض عليه مبلغ اربعة الاف دولار لتؤخذ له صورة للاعلان وهو يحتسي نوعا معينا من الخمر فرفض قائلا « لن ارضى بشرب هذا النوع لقاء اربعة الاف دولار » . وكثير من هذه القصص تروى عنه باعتباره اصبح «حديث الصحف ». ومن

(1) لقد فاتنا ان نذكر ان هذه القصة كتبت حين كان همنجواي يختبىء الفشل ككاتب وكان يظن في نفسه انه سيموت ويموت ادبه معه ويتساءل ان كان يستطيع ان يرقى قمة الجبل كما رقيها الفهد فمات في الاعلى دون ان يتعفن مثلما يتعفن الكاتب في هاري في السهل ويستعمل همنجواي الجبل في ادبه رمزا للحياة كما قال ت.س. اليوت في الارض الخراب « هنالك في الجبل تحس بالحرية » ..

اما في اقصوصته المسماة « قصيدة من الالب » فان الثلج يصبح رمزا للانسان وقد مات ميتتين : ميتة حقيقية وميتة في القلب . وهي تروي قصة فلاح سويسري تموت زوجته في الشتاء ويضعها على خشبة كبيرة منتظرا ذوبان الجليد كي ينزل بها الى حيث يدفنها ثم انه يكون في حاجة الى الخشب الذي وضعها عليه ليتدفأ به وبعد هذا يجد ان انطراحها على الارض يضايقه في السقيفة التي يخزن بها ادواته فيوقفها تلقاء الجدار وكان حين يريد الدخول ليلا الى تلك السقيفة لا يجد ما يعلق عليه الفانوس سوى فكها الاسفل حتى تتشوه وتدلى من كثرة ذلك الاستعمال . فالشتاء (حين غطى الارض بثلوج النسيان على حد تعبير ت.س. اليوت في الارض الخراب) جعل الانسان ينسى حرارة القلب، والثلج يمكن ان يرمز في هذه الاقصوصة الى كل وحشية وقسوة يعتاد عليها الانسان بحيث يستطيع ان يعيش ويأكل وينام دون ان تقلقه في شيء . ان في ادب همنجواي صورا مرعبة كثيرة ولكن مقلديه اخذوا الصور المرعبة وحدها دون ان يستطيعوا تقليده في الظلال الشعرية التي تكمن وراء تلك الصور . وفي رأيي ان الظلال الخفية في ادب همنجواي تزداد وضوحا كلما اعدنا القراءة اذ ان اعمال همنجواي الجيدة لا تقرأ مرة واحدة بل مرات عديدة ولن يضيع الجهد الذي يبذله المرء مع همنجواي عبثا فما اشبه همنجواي بستندال (وبغير ستندال من العباقرة) وهو الذي قال عنه الناقد الفرنسي اندريه سواريز :

« يزداد المرء ذكاء كلما ازداد اعجابه بستندال » .

يصبح حديث الصحف يرو عنه ما هو أشد امعانا في الخيال من هذا .

اما من ناحية تقييمه ومكانته الفنية فان همنجواي قد نال من المتحمسين له من ادعوا انه اعظم كاتب في القرن العشرين ومن بالغ اكثر من ذلك كالكاتب العابد له جون اوهارا فقال « لم يكتب احد في اللغة الانكليزية بعد شكسبير افضل من همنغواي » .ومن بالغ اكثر من ذلك وتساءل منكرا : كيف يكون بالله شكسبير افضل من همنجواي ؟

ولو حاولنا تقييم همنجواي على حقيقته ضاربين صفحا بالحماس الاهوج له وجب علينا ان نقول ان همنجواي قد خلق من ناحية الشكل اسلوبا جديدا في الكتابة سماته التواضع في التعبير والاقتصاد في الكلمات والتجرد الموضوعي العاطفي الذي تكمن وراءه شحنات عاطفية جمة ووضوح خداع خداع يخفي تعقيدات لا تحصى.اما من ناحية الفحوى (وهي متصلة بالاسلوب الى حد كبير) فينبغي ان نقر ان همنجواي نجح في خلق الجو النفسي الذي به يتذوق .

لقد قال اوسكار وايلد عابثا وأظنه لم يكن يعني ما يقول « الفن لا يقلد الطبيعة بل الطبيعة هي التي تقلد الفن » ويصدق هذا القول على كثير من العباقرة وهمنجواي احدهم من حيث ان قراءهم يمتلكون المزاج النفسي الذي يصورونه بعد قراءتهم لهم . ثم انهم تبعا لذلك يستجيبون اليهم ويتذوقونهم اي ان طبيعتهم تقلد فنهم (على حد تعبير وايلد).

وان رجلا يستطيع ان يفعل كل ذلك لم يفعل قليلا حتى وان ظل بالقياس الى شكسبير بمثابة الشجرة الثابتة المتينة على سفح جبل مشجر مهيب عال وهو حظ لم يحالف الا قليلا ممن استعملوا الكلمات ادوات للايصال .

كركوك ـ العراق

نجيب عبد الرحمن المانع

مراجع هذا البحث ولزيادة البحث

1 - Ernest Hemingway - Carlos Baker
2 - Ernest Hemingway - Philip Young
3 - Ernest Hemingway - Edited by J.K.M.Mc Caffery
وهو كتاب يحتوي على مقالات حول همنجواي كتبها عشرون ناقدا
4 - Writers in Crisis - Maxwell Geismar
5 - The Novel of violence in America - W.M. Frohock
6 - Introduction to the portable Hemingway by Malcoln Cowley
من اهم البحوث القصيرة
7 - The Literature of the United States - M. Cunliffe
8 - Novelists - Philosophers - Ernest Hemingway By R. Penn Warren
9 - Hemingway in Italy - Mario Praz
10 - No Voice is Wholly Lost - Harry Slochower
11 - Tne Modern Novel in America - F.J. Hoffman
12 - The Short story in America - 1900 - 1950 R.B. West
13 - On native grounds - Alfred Kazin
14 - Cavalcade of the American Novel-E.Wagenknecht
15 - The Cycle of American Literature - R.E. Spiller
16 - Higlights of Modern literature Edited by - F. Brown.